الآداب

المجلد:22، العـــدد:01، ديسمبر 2022

الصفحات: 246-263 ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

المرأة الإفريقية بين وصم السواد وهيمنة الذكورة / رواية "لله الأمر" لأحمادو كوروما أنموذجا

The African Woman between the stigma of Blackness and masculine dominance: The Novel “Allah is not Obliged” by Ahmadou Kourouma as a Model

ط.د. عبد الله قرقور [1]

أ.د. رياض بن يوسف [2]

[1] جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1 –الجزائر، abdellah.guergour@student.umc.edu.dz

[2] جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1– الجزائر، riadh.benyoucef@umc.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2022/01/20 تاريخ القبول: 2022/07/22 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق فهم أفضل لوضع المرأة الإفريقية المركب الذي يتقاطع من خلاله وصما اللون والجنس ليشكلا منطلقا لإقصاء هذه الأنثى، وتهميش دورها في المجتمع، وذلك استنادا على قراءة ثقافية تتتبع تمثلات الشخصيات الأنثوية في رواية إفريقية تتضمن موضوعة المرأة ومظاهر معاناتها وهي رواية "لله الأمر" للكاتب الإيفواري المعروف "أحمادو كوروما".

إن من شأن هذا التمييز المضاعف الذي تعانيه المرأة الإفريقية أن يزيد من أعبائها، حيث يصبح الصراع أمامها مزدوجا: فهي من جهة تصارع سلطة ذكورية أبوية تمعن في تهميشها، ومن جهة أخرى تصارع تبعات هويتها العرقية/ الزنجية المتنامية عبر وصم اللون.

كلمات مفتاحية: المرأة الإفريقية؛ الوصم؛ الهيمنة الذكورية؛ الأنيموس؛ أحمادو كوروما.

Abstract:

This research seeks to achieve a better understanding of the complex status of African women, through which the stigma of color and sex intersect to make a starting point for the exclusion of this female and the marginalization of her role in society. This is based on a cultural reading that tracks the representations of This research seeks to achieve a better understanding of the complex status of African women, through which the stigma of color and sex intersect to make a starting point for the exclusion of this female and the marginalization of her role in society. This is based on a cultural reading that tracks the representations of female characters

المؤلف المراسل: عبد الله قرقور.

in the African novel "Allah is not Obliged", by the well-known Ivorian writer Ahmadou Kourouma, which includes the theme of women and the manifestations of their suffering.
This double discrimination African women suffer from increases their burden, as they confront a double conflict: on the one hand, they struggle with a patriarchal masculine authority that continues to marginalize them, and on the other, they struggle with the consequences of their growing ethnic/negro identity growing through the stigmatization of color.
Keywords: *African women; Stigma; Male dominance; Animus; Ahmadou Kourouma.*

مقدمة:

إن المتتبع للحركة النقدية التي تعنى بالموروث الثقافي الغربي، يلاحظ ذلك التحول العميق بعد الحرب العالمية الثانية، والذي مس مختلف مستويات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بعد الإكراه الذي آلت إليه الحداثة؛ في محاولة فرض نموذج الآلة عوض أي بديل آخر، وفي محاولة تجسيد مقولة النسق الذي بدا في بداية الأمر كأنه المخلّص من سلطة السياق، ولذلك احتفى به مجموعة من الفلاسفة على غرار "ميشال فوكو Michel foucault" القائل: "نحن جيل النسق". لكن سرعان ما انقلب على هذا الطرح حينما أخذ هذا النظام يؤسس لمركزية ألغت عديد الأقليات، وصيرتهم هوامش لا طائل من وجودهم.

لقد بات الدرس النقدي الثقافي المعاصر موجها نحو الأقليات أو ما اصطلح عليه بـ: "الهامش"، ولعل أهم شكل يظهر فيه هذا الأخير هو "المرأة"؛ باعتبارها ضحية السلطة البطريركية التي غيّبت دورها الفاعل وإسهاماتها في كتابة الحضارة البشرية لصالح الرجل منذ الأزل، وهو الحال الذي مهّد للمرأة الغربية حقلا معرفيا قائما بذاته، له مصطلحاته ومفاهيمه (النسوية، النسائية، النقد النسوي، ما بعد النسوية...) حيث عني بمراجعة تاريخها وتصحيح وضعها على صعيد المنظومة الاجتماعية.

سنحاول في هذا المقال أن نتتبع في صفحات رواية إفريقيةٍ تمثلات جنس امرأة لا تختلف بيولوجيا عن سابقتها الأوروبية، وإنما لا تقاسمها نفس الحيّز الجغرافي ولا نفس اللون، فبموجب هذين الاختلافين تم تهميش المرأة الإفريقية، ووضعها داخل إطار تمييز مزدوج: تمييز جنسي يضعها في مرتبة دون الرجل، وتمييز عنصري للون بشرتها الأسود. وهذا ما يقودنا إلى مفهوم "التقاطع" الذي ذهبت إليه الناشطة والحقوقية الأمريكية ذات الأصول الأفريقية "كمبرلي ويليامز كرينشو" في توصيف النساء الملونات ووضعهن في القارة الأمريكية[1].

وبناء على ما سبق ينبثق التساؤل الآتي:

- ما موقع المرأة الإفريقية من النسوية الغربية؟ وما مدى ارتباط المرأة الإفريقية بأهداف ومبادئ النسوية الغربية؟

إنه تساؤل يفضي بدوره لعديد التساؤلات الأخرى، من قبيل: هل يمكن للتباين الجغرافي والحضاري بين المرأة الإفريقية والمرأة الغربية أن يُفشل مساعي المرأة الكونية؟ وما هي مكانة المرأة داخل المجتمع الإفريقي؟

وأخيرا: كيف صوّرت الرواية الإفريقية واقع المرأة ومتطلباتها؟

في محاولة لإزالة الغموض الذي يعتري هذا الطرح عن المرأة الإفريقية، أو ربما لاستدعاء تساؤلات أو أفكار أخرى تسير باتجاه فهم أفضل لخصوصية جنس المرأة في القارة السمراء؛ يسعى هذا البحث إلى تفكيك بنية المرأة عبر تمثلاتها في شخصيات رواية: "لله الأمر" للكاتب الإيفواري "أحمادو كوروما"، بالتركيز على خاصية الوصم/العار التي تسِمُ شخصيات الرواية، مستأنسين في ذلك بمبادئ نظرية الوصم التي بلورها "إرفنغ غوفمان Goffman" وذلك في عدم اهتمامها بالأدوار العادية لأفراد المجتمع، بل في تسليط الضوء على الأدوار الخاصة التي تعبر عن سلوك منحرف، ولعلّها نفس الأدوار التي اختار كاتب الرواية أن يلحقها بشخصياته المؤنثة، متمثلة في حمل السلاح وممارسة مظاهر القتل والتنكيل، وكل ما قد يتبادر إلى الذهن إثر قراءة عبارة الحرب الأهلية القبلية.

1.تقديم الرواية:

بطل الرواية هو "إبراهيما"، طفل زنجي ملانكي[2] توقف عن الدراسة في الصف الثاني ابتدائي، يصف نفسه بالصفاقة والوقاحة، ليس لطيفا ولا محبوبا، تتبعه نيامات[3] أشخاص أبرياء. يقوم بسرد أحداث الرواية التي ينعتها بالهراء بطريقة فضة، حيث أنه يستعين بأربعة قواميس فرنسية فيما يتعلق بألفاظ السباب، قصد البحث عنها والتحقق منها، وكذلك ومن أجل شرحها. يقول: "كيف حصلت على هذه المعاجم؟ هذه حكاية طويلة لا أرغب في قصها عليكم الآن... فلا وقت لدي، ولا يعجبني الخوض في ثرثرة من هذا النوع... هذا كل ما في الأمر... فافورو"[4] تجسد شخصية "إبراهيما" من خلال هذا القول، شخصية الصبي البائس الذي وإن صادفته الكنوز في مسار حياته، سيختار منها الزائف، ولا أدل من ذلك؛ حصوله على قواميس الشتائم دون سواها.

يعكس السرد منذ بدايته صورة سلبية عن حياة بطل الرواية وحياة والدته، إذ يصفها بالخسيسة والحقيرة واللعينة. وذلك في دعوة للقارئ لاكتشافها والتركيز على تفاصيلها، يقول:

"اجلسوا وأنصتوا إلي واكتبوا ودونوا كل شيء.. كل شيء"[5] ليس هذا فحسب، بل يحمّل السرد جهة بعينها مسؤولية هذا المصير البائس، بأسلوب تهكمي كثيرا ما يتردد في صفحات الرواية، ويبدو جليا في شكل لازمة تنتهي بها مقاطع عدة من الرواية " لله الأمر في كل شيء... فافورو!"[6]، لفظة فافورو التي تعني عضو أبي / عضو الأب / عضو أبيك تحصر القارئ بين متضادين؛ ففي الحقيقة يردف –في مواضع عديدة من الرواية– شطر العنوان "لله الأمر"، وهي المقولة التي تحمل طابعا دينيا تسليميا بالقضاء والقدر الذي كتبه الله على العباد، والتي تبدو للوهلة الأولى على أنها عبارة تصدر من فاه مؤمن عابد طائع، يسلم أمره لله ويرضى بما كتبه وقدره له، بعبارة الشتم والتنمر التي تعكس الموازين، ها هنا يتنبؤ القارئ بالموضع الذي اختاره "إبراهيما" بطل الرواية لنفسه، إنه الزنجي الساخط المتذمر من حياته والقدر الذي كتب عليه وعلى أمه.

تبدأ الرواية بقصة معاناة والدة "إبراهيما" مع القرحة التي مست ساقها، وأجبرتها على الزحف على مؤخرتها طيلة حياتها، وما إن فارقت الحياة حتى اضطر "إبراهيما" للبحث عن خالته "ماهان" لتكون وصية عليه بعد أمه، وفي رحلة طويلة من "ليبيريا" إلى "سيراليون" لا يختلف فيها حجم المعاناة

كثيرا إذا ما قرن بين معاناة الأم، يسرد البطل تفاصيل الحرب الأهلية القبلية وتأثيرها على مختلف شخصيات الرواية.

2.وصم الختان:

تعد ظاهرة ختان الفتيات أو ما يدعى بـــ: "الخفاض"، أسلوبا بدائيا لا يزال قائما لدى بعض دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية، وذلك استنادا لمرجعيات طقوسية أو ثقافية أو دينية، يحلو لكل ثقافة من هذه الثقافات الانطواء تحت لواء تبريراتها، متغافلين في ذلك عن حجم الضرر البالغ الذي تلحقه هذه العملية على الأنثى، إنْ على المدى القريب، أو في المستقبل المرهون بفشل العلاقة الزوجية؛ فكثيرا ما "تشمل المضاعفات الفورية جميع أشكال النزيف والالتهابات التي تؤدي إلى الوفاة، فضلا عن قلق إمكانية نقل فيروس نقص المناعة"[7]. فقد يؤدي ختان الفتاة بحياتها إثر فقدها لكميات كبيرة من الدم إثر النزيف الحاد الذي قد يصيبها، أو سيظل ضرره ملاحقا لها طيلة حياتها مهددا لها باكتساب الأمراض المختلفة، وفي الحالتين سينهي عار الختان حياة الأنثى التي تسكنها.

لقد تعرضت إحدى شخصيات الرواية لعملية الختان، وهي "والدة إبراهيما" التي بتر شيء من جسدها في صغرها، يستحضر بطل الرواية "إبراهيما" سبب جنوح والدته لهذا الفعل، يقول: "عندما كانت أمي شابة عذراء وجميلة مثل الجوهرة، كانت تعيش في القرية التي يهرِّب بها جدي الذهب، والتي كانت تعج بالعديد من اللصوص بائعي الذهب الذين يغتصبون الفتيات غير المختونات ويذبحونهن، لذلك لم تنتظر أمي طويلا، فعند حلول أول ريح حرور عادت إلى القرية لتحضر احتفاليات موسم الختان"[8] لم تترك مؤسسة الرجل للمرأة الإفريقية خيارا بديلا غير التوجه للختان حفاظا على حياتها، أو كما يبدو للوهلة الأولى، لأننا سرعان ما ندرك مع "والدة إبراهيما" أنها حافظت على حياة بائسة تحرم عليها مفاتيح السعادة. لقد عايشت شخصية الرواية ألما نفسيا قاهرا منذ لحظة الختان والنزيف الذي لم يتوقف، تماما كالألم الذي تحدثه عملية الختان لكل فتاة خبرت هذه التجربة، لذلك تحدثت الناشطة النسوية المصرية "نوال السعداوي" عن تجربتها مع الختان، وأدانت بشدة هذا النوع من التعامل مع المرأة في كتابها: "المرأة والجنس"، لما له من آثار سلبية تنعكس على مستقبل الفتيات، وإن كانت هذه الآثار تظهر بشكل نسبي من فتاة لأخرى؛ نتيجة اختلاف العوامل التي تعرضت لها

كل فتاة، بيد أن الظروف التي تبين عنها الرواية فيما يتعلق بعملية ختان المرأة الإفريقية/ والدة إبراهيما، تبدو أكثر وحشية وغرابة، فأن تساق الفتاة ضمن مجموعة من أقرانها وتختار من بينهن للختان أمام الملأ، ليس مثل ختانها وهي محاطة بالستائر، يقول إبراهيما: "عند طلوع الفجر تخرج الفتيات من أكواخهن ويدخلن الأدغال تباعا، ثم يمشين في صمت إلى أن يصلن إلى باحة الختان... هناك شيء ما سيبتر، وقد بتر شيء ما من جسد أمي، ولكن للأسف لم يتوقف نزيفها، كان دمها يسيل مثل نهر فائض إثر عاصفة هوجاء"[9]. يبيّن هذا المقطع من الرواية مدى استفحال مؤسسة الرجل على كسر المرأة؛ وذلك بالعبث بالخصائص المميزة لها من جهة، وبأن تجعل الأمر يبدو طبيعيا وتدخله في حيّز العرف والعادات والتقاليد من جهة أخرى، فالملاحظ أن "إبراهيما" شهد موقف ختان والدته وبأدق تفاصيله دونما محاولة منه لرفض هذا التقليد.

كما أن اختلاف الفئة العمرية لكل فتاة أثناء ختانها يلعب دورا هاما في استرجاع ذاكرتها لذلك الحدث، خصوصا وأن والدة إبراهيما ختّنت في سن يسمح لها بتذكر أدق التفاصيل عن الحادثة، وذلك لوعيها التام بما سيحدث لها واختيارها له هروبا من اغتصاب الصيادين واللصوص. وعلى نحو ما يحدث في ثقافات تتقبل فكرة ختان الفتيات، قد يتدخل طبيب خبير بالأدوات التي يحملها لأداء المهمة، كما يعرف جيدا مواضع الاستئصال والبتر، على نقيض ما صورته الرواية؛ فالمرأة الإفريقية تتولى مهمة ختانها المشعوذة أو الساحرة، وهي العجوز التي تسير وفق أوهامها وشياطينها، وما تمليه عليها خواطرها، "كانت الساحرة المختنة من سلالة البامبارا وعبدة الأوثان وعرافين متوحشين وبدائيين وسحرة دجالين"[10] فالمرأة الإفريقية تعاني من تعنت مضاعف؛ الختان والأسلوب الذي يتم به: فقد تتولى المهمة عجوز هرمة، أو دجالة أو مشعوذة لا صلة لها بالطب والأعضاء.

تندمج أجواء الختان المأساوي لوالدة إبراهيما بظروفه السالفة الذكر، لتنبئ عن سيرورة حياة بائسة للمرأة الإفريقية ركيزتها الألم والمعاناة، تظهره الرواية وفق محطات سردية ترتكز كل واحدة منها على تبريرات عجائبية، تزيد وضع المرأة الإفريقية سوءا وانغلاقا. يمكن تلخيص هذه السيرورة في المخطط الآتي:

قبل حادثة الختان ← حادثة الختان ← بعد حادثة الختان

النجاة من الموت المحقق ← نحو الموت البطيء ← القرحة– صعوبة الإنجاب– الزواج الأبيض التشوه– الموت

1.2 مرحلة ما قبل حادثة الختان:

هي الفترة التي تجبر المرأة فيها على الهروب من وصم الاغتصاب وفقدان الشرف، إلى وصم آخر يهدد أنوثتها وهو الختان.

2.2 مرحلة حادثة الختان:

وهي اللحظة التي تفقد فيها المرأة شعورها بالانتماء لعالم يضم جنسين (ذكر+ أنثى)، ذاك الموقف الذي تشعر صاحبته باللاجدوى من تواجدها، تُنسى كما لو أنها لم تكن، حتى من أقرب الناس إليها. يقول إبراهيما: "كانت جدتي تحب أمي كثيرا ومع ذلك لم تكن تعرف تاريخ ميلادها ولا يوم ميلادها بين الأسبوع... شرح لي (بالا) أن الأمر ليس له أهمية، إذ ليس ضروريا أن يعرف الإنسان تاريخ ويوم ميلاده ما دمنا قد ولدنا جميعا في يوم أو في آخر، في مكان أو في آخر"[11] فأن ينسى تاريخ ميلاد والدة إبراهيم من طرف أكثر الأفراد اهتماما بها وهي والدتها، معناه أن الرجل بصدد نسيان وتجاهل تاريخ المرأة وكل ما يتعلق بها، رغم أنها المكمّل الطبيعي له وسر تواجده واستمراره.

3.2 مرحلة ما بعد حادثة الختان:

وهي الفترة التي تتأزم فيها حياة المرأة الإفريقية المختونة، إذ تظهر عليها آثار الختان الموضعية في الحياة الزوجية من آلام تستدعي علاجا ومراهم طبية ولكنها سرعان ما تظهر أثناء كل ممارسة، وهي ما عبّرت عنها الرواية بالقرحة العفنة التي أصابت والدة إبراهيما في ساقها، وتستدعي خلطات دائمة لمعالجتها ولكنها تأبى الالتئام، يقول إبراهيما: "وأحيانا كنت أسقط في القرحة وتزداد أمي صراخا كأنها ضبع قبض قوامه بين أسنان فك ذئب ضخم، ثم تبكي بدموع غزيرة، كانت دائمة البكاء

وكانت دموعها موجودة دائما وأبدا داخل قاع عينيها والنحيب يملأ حنجرتها ويخنقها خنقا"[12]. إن الألم لدى المرأة لا يزول بمجرد انتهاء عملية الختان، لكنه يستمر ويتطور ليصبح ألما من نوع آخر، ألم يمس مشاعر الأنثى التي تريد ممارسة حياة زوجية طبيعية.

ارتبط تشبيه المرأة في الثقافة الإفريقية بالطبيعة، لكثرة إنجابها واحتواءها لأبنائها، تماما كما تحتوي الطبيعة الموجودات. وهذا عكس ما نجده عند والدة إبراهيما، التي فقدت القدرة على رعاية الأطفال على غرار إنجابهم. لوالدة ابراهيما ثلاثة أطفال فقط: مريم، فطومة، براهيما. حتى أن وضعها لا يسمح برعايتهم وهي التي تزحف على مؤخرتها بعد أن أكلت القرحة ساقها. وحتى وإن قدر لها الزواج بعد وفاة والد إبراهيما، فسيكون زواجا أبيض لا مضاجعة تتخلله، ذاك ما أقدم على فعله "بالا" العراف لما لم يُظهِر أخ والد إبراهيما رغبة في الزواج بزوجة أخيه المتوفى، رغم أن العادات الإفريقية توجب هذا الفعل، وكي لا تبقى أرملة –لهذا السبب فقط– اختار "بالا" أن تكمل ما تبقى لها من حياتها المؤلمة تحت ناظريه.

تجد المرأة الإفريقية المختونة نفسها أمام مشهد للشفقة والدعم الإنساني، بعد أن كانت امرأة كاملة القوام. ولا سبيل أمام ذويها إلا تحمل عبء تواجدها والتعامل معه على أنه أمر طبيعي، فمما يردده "بالا" أن الطفل ليس عليه أن يترك كوخ أمه للروائح الكريهة الموجودة به. يقول إبراهيما: "وأنا من ناحيتي لم أخش يوما من روائح أمي ولا أي نوع من أنواع النتانة التي تملأ الكوخ سواء كانت ريحا أو غائطا أو بولا أو عفونة الحرقة أو اختناق الدخان أو روائح المداوي بالا، إذ لم أعد أشمها ولا عادت تصيبني بغثيان، بل كان لكل روائح أمي طيب خاص بالنسبة لي فقد اعتدت عليها، وفي قلبها أكلت أطيب ما أكلت، ونمت أفضل ما نمت، وهذا ما يسمى بالمكان الطبيعي الذي تنمو فيه كل فسيلة وتترعرع، وكوخ أمي بكل روائحه كان هو مكاني الطبيعي"[13]. إن من هم يعيشون حول المرأة، لا يبالون بما يصيبها، بل وقد لا يشعرون إطلاقا بما ينغص عيشها. لا تجانب هذه الفكرة الصواب حين يصرح "إبراهيما" بأن وضع والدته المزري هو ما يراه مكانا طبيعيا.

"وكانت جدتي تقول كفاك دموعا ونحيبا، إن الله هو خالق كل واحد منا بحظه وعينيه وقامته وبأحزانه، ولقد كتب عليك آلام القرحة وقدر لك أن تقضي كل حياتك على الأرض فوق حصيرة،

في قاع كوخ، بجانب موقد"[14]، من خلال مطالبة الجدة بالرضا بالقدر، نستشف مطالبة السطلة الأبوية المرأة بالخنوع لتاريخ رجل يشترط حضورها فيها تابعا لا أكثر.

يواسي كل من الجدة والأب "والدة إبراهيما" بأن يذكراها بأن الفرد المؤمن مبتلى، ولها فيما تعيشه فضل واصطفاء من الله، لأن عذاب الدنيا أهون بكثير من عذاب جهنم الذي سيطال الكفار. إنما يصور هذا المشهد السردي أدق صور ضعف المرأة الإفريقية أمام سلطة المجتمع الأبوي التي غدت قدرا منزلا مكتوبا عليها، وجب تقبله والإيمان به بوصفه ابتلاء واصطفاء.

لقد أثبت غياب عصا تستند إليها والدة إبراهيما أثناء محاولة المشي عجزها الدائم عن التفكير في تحسين وضعها، بدل أن ترضخ على حصيرة يخيطها الرجل / القدر كيفما قدّر وفصّل.

لن تنتهي معاناة المرأة الإفريقية هنا فحسب، بل يطال تشوه آخر حياتها الخاصة مع أقرباءها. وعادة ما يتعلق بفقدانها للثقة بنفسها في محبة وقرب الآخرين منها، وليس بالأمر الغريب لأن الفتاة المختونة "تعاني من الشعور بأنها تعرضت للخيانة والخداع فتفقد ثقتها بالآخرين وحتى الأقارب والأصدقاء وقد يؤثر على المدى الطويل على علاقتها حتى مع أطفالها وأحيانا تظهر الضحية إحساسا بأنها تعرضت للإهانة إضافة إلى الكبت"[15] لذلك تبدو والدة "إبراهيما" لدى ابنها كساحرة بعد أن ازدادت حالتها سوءاً، يقول: "صارت أمي أكبر ساحرة في البلد كله وأصبح سحرها أكبر من سحر المختنة وابنها، أصبحت كبيرة السحرة وآكلة كل الأرواح في القرية"[16]. ويضيف: "لما علمت بهذا كله واطلعت على سحر أمي وعرفت أنها هي التي تأكل طواعية ساقها العفنة، ذهلت إلى حد الغثيان وبكيت نهارا وليلا طيلة أربعة أيام بأكملها، وفي صباح اليوم الخامس تركت الكوخ بنية عدم الأكل أبدا مع أمي التي بدأت أشعر أنها مقززة جدا"[17] لقد بُترَت ثقة الولد بأمه تماما كما استُؤصِل بظر المرأة الإفريقية عن جسدها. وهذا التشوه الحاصل في العلاقة بين المرأة المختونة ومع من حولها، من شأنه أن يضعف روابط المحبة، وأن يخلق نوعا من الرعب داخل نفس المرأة وذويها، وإلا كيف يُتصوَر أن تُلحق الأم بولدها الضرر؟ يعلّق إبراهيما في لحظة هلع من التشوه الذي مسّ والدته: "كنت مرعوبا أن تأكل يوما روحي"[18].

لم يعد يفصل المرأة الإفريقية/ والدة إبراهيما عن الموت الحقيقي سوى لفظ أنفاسها الأخيرة، ولعلّه الحل الأنسب للتخلص من آلامها وأحزانها، إن الموت بالنسبة إليها عودة إلى ما قبل حادثة الختان، حيث كانت أنثى سوية بكامل مكونات جسمها، تلك اللحظة التي لطالما تمنى "إبراهيما" معرفتها، متأسفا على الحالة الطبيعية لوالدته قبل مأساتها التي لا يعرفها، ويحاول تخيّلها، يقول: " من المؤسف حقا ألا نعرف كيف كان العالم قبل الولادة، في صباح بعض الأيام كنت أحاول تخيّل أمي قبل ختانها عندما كانت فتاة شابة عذراء، أخبرتني جدتي وبالا أنها كانت جميلة كالغزال"[19]. لقد توفيت والدة إبراهيما، ولا يرغب ابنها في سرد ظروف وفاتها، في حين أنه يشعر بحزن وأسى عند الحديث عن والده الذي مات وهو صغير، مفارقة تضعنا أمامها الرواية؛ كيف للولد الذي عاش مع والدته بكوخ صغير حمل كل تفاصيل حياتهما، أن يودّعها للأبد دون رغبة في سرد لحظة وفاتها، خاصة وأنها المرأة التي تعلقت به بكل ما تملك وإلى لحظة وفاتها: "عندما وصلت أمي لدرجة التعفن المفرط أي التعفن في آخر درجاته استدعتني وشدت على ذراعي الأيسر بيدها اليمنى، لم يكن باستطاعتي التخلص منها لأذهب للتسكع في الشوارع تلك الليلة فنمت على الحصير وأسلمت أمي الروح عند الفجر، وفي الصباح كانت أصابعها ضاغطة على ذراعي بشدة لدرجة أن بالا وجدتي وامرأة أخرى اضطروا إلى التعاون جميعا لتخليصي منها، والله! هذا صحيح"[20]. أدرك "إبراهيما" إساءته لوالدته وندم على ذلك وعاش بعدها ولعنتها تلاحقه في نظره، لقد ماتت ولم تقل أي شيء، ماتت بغصة في قلبها تلازمها.

3.الأنيموس وذكورة الأنثى:

بني السرد في الرواية وفق حيز مكاني غير ثابت، فبطل الرواية يسرد أحداث رحلته بحثا عن خالته "ماهان" من ليبيريا إلى سيراليون مرورا بالقرى والأماكن التي تعج بالحروب الأهلية، ومع هذا التحول القلق والمتوتر، يجد القارئ صعوبة في تقبل شخصية المرأة وفق الصفات المتاحة لها؛ فقد يتصادف بالشخصية "فاتي" وهي الطفلة السوداء الجندية حاملة السلاح التي تُكثر من شرب الحشيش، والتي أقدمت في لحظة غير واعية على قتل توأمين صغيرين لا يتعديان السادسة من العمر، أو ربما

بالجندية الزنجية "سارا" التي بلغت منها الشجاعة أن تطلق النار على "الرأس المحروقة" قاتل أحد أهم قادة الحرب الأهلية في ليبيريا. وكذلك الجنرالة ذات البشرة السوداء "أونيكا بكلاي دو" وهي شقيقة صامويل دو، عيّنها نقيبا في الجيش الليبيري بعد نجاح المؤامرة التي جمعت بين الأهليين والأفرو-أمريكان، لها شخصية فريدة غريبة الأطوار، صغيرة ونشيطة، تشرف على كل شيء بمفردها، تتنقل رفقة حرسها الشخصي في سيارات رباعية الدفع، لها سلطة تشمل الرجال والنساء، كانت إدارتها عائلية حيث توكّل ابنها العقيد وقائد الفيلق "جوني بكلاي دو" للتدابير اليومية، المتزوج بدوره بثلاثة نساء، كلهن قائدات زنجيات يسيّرن القطاعات الأكثر حيوية: "سيتا" مسلمة ولكن دموية موكّلة بالمالية، "منيتا" بروستانتية إنسانية موكّلة بالسجون تسمح للسجناء بالأكل رغم القانون الذي يمنع ذلك، أما "ريتا" بكلاي فمكلّفة بالأطفال الجنود، وكانت تحب إبراهيما وتدعوه بابن العراف، كما كانت تدعوه لمنزلها لتمارس معه خيانة زوجها.

إن الملاحِظ للأدوار الموكّلة للمرأة السوداء في الرواية، يدرك أنها وظائف لا تندرج ضمن الأدوار النسائية المتعارف عليها في المخيال الجمعي، وأنها لا تناسب طبيعتها البيولوجية، "وليس الأمر مواجهة بين الرجال والنساء، بل بحث عن تصور أصح لتاريخ الوضع الإنساني، الذي يضم كلا الطرفين ولا يقتصر على الذكورية فقط"[21]. إننا بهذا الطرح الوظائفي لشخصيات الرواية نقترب مما يسميه النقاد بـ: "الأنيموس Animus"، فقد "طرح العالم النفساني كارل يونج نظريته عن الأنيموس Animus وهو الضمير الذكوري داخل المرأة... كلاريسا استيز Estes – وهي أخصائية نفسانية ومؤلّفة تهتم بقضية المرأة وبصحتها المعنوية والوجودية- ترى أن الأنيموس يمثّل القوة النفسية والمعنوية في المرأة، وهو بلا شك عنصر ذكوري داخل الأنوثة... قوة داخلية تساعد المرأة على التفاعل مع العالم الخارجي ويعينها على استخراج كوامنها الذهنية ومشاعرها الداخلية ويأخذ بيدها للإفصاح عن ذاتها عاطفيا وإبداعيا بطريقة محسوسة"[22] سنتفق -مع كثرة الحدود حول هذا المصطلح- على أن مفهوم "الأنيموس" يجول حول الصوت الذكوري الذي يسكن المرأة، وما قد يترتّب عنه من سلوكات إيجابية أو سلبية. والسؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا: لماذا ميّزت خاصية "الأنيموس" المرأة الإفريقية السوداء بشكل صارخ في الرواية؟ ولماذا اقتصرت تبعاتها على شق سلبي فقط؟ أي أننا لم نعاين في

الرواية أنثى سوداء قوية بمواقفها وبشخصيتها، في حين أنها صُوّرَت بالقاتلة والوحشية ومتعاطية الحشيش؟

أو لماذا تقترب المرأة في الرواية من خصوصيات الذكورة التي تشوّه واقع الأنثى الذي يجنح للسلم والهدوء؟ هل لأن الفرد الأسود عامة –وهي صفة تشمل المرأة الإفريقية طبعا– لطالما عرف بالوحشية والغرابة؟ أم لأنه الآخر المختلف "الآخر الأسود المسلم وغير المسلم، هذا الآخر الذي وُصم بصفات البهيمية والوحشية والشهوانية المفرطة وفساد الخُلق وتشوُّه الخِلقة، ونُحتت له تمثيلات انتقاصية، وصورٌ مشوَّهة ومشوِّهة ترسبت في المتخيل... ورسّختها ممارسات التمثيل المتنوعة الخطابية وغير الخطابية؟"[23]، إن الملاحظ لصفات الشخصيات السالفة الذكر، يلحظ أنها شخصيات أنثوية اشتركت جميعها في صفة اللون / السواد من جهة، ووصمت كذلك بالسلوك السلبي من جهة أخرى:

- فاتي ⟷ طفلة سوداء حاملة سلاح، قاتلة لتوأمين صغيرين
- سارا ⟷ جندية سوداء قاتلة لأهم مرتزق في ليبيريا (الرأس السوداء)
- اونيكا بكلاي دور ⟷ قائدة طاغية سوداء تشمل سلطتها الرجال والنساء

لم تكتس أي شخصية أنثوية بيضاء في الرواية صفة من صفات القتل، أو السرقة أو شرب المخذرات... في حين أن كل شخصية سوداء أردف بها صفة غير لائقة! هل لأن المرأة البيضاء الناعمة تميّزها أنوثة خاصة، وأن للمرأة السوداء أنوثة مختلفة! أم هل أن "الأنيموس" إذا ما اقترن بالمرأة الشمالية/ البيضاء يعتبر دافعا لها؛ حيث يزيد من ثقتها بنفسها ويعزّز قوامها واعتمادها على نفسها بعيد عن مساندة الرجل، وإذا ما اقترن بالسوداء يترجم إلى قتل وسرقة ووحشية!

يمكن القول أن السواد في هذه العيّنات من الرواية، يعتبر وصما أثقل كاهل المرأة. فالسواد على هذا الحال لا يصنّف كعامل جيني أو وراثي ينتقل من الأب أو الأم للابن، إنما هو عار يرتبط بالمرأة؛ فيضيف على ما تعانيه من هيمنة ذكورية، ذكورية أخرى سلبية، لا هي قادرة على مواجهة سلطة الرجل –كونها مجموعة صفات سلبية – ولا باستطاعتها أن تتنحى عن المخيال الجمعي لصالح أنوثة سوداء مميّزة.

ورغم ما نجده لدى شخصية المرأة الإفريقية السوداء من شجاعة حمل السلاح ومقاومة مختلف أنواع الظلم والقهر خاصة تلك التي يسببها الرجل، إلا أنها تبقى عاجزة أمام قدرة الرجل وهيمنته المطلقة، وكثيرا ما يتهم هذا الأخير بأنه سبب مختلف آلامها ومعاناتها بطريقة مباشرة أو بغيرها، وهو ما تبين عنه الفتاة "فاتي" التي أجبرت على الالتحاق بمجموعة الأطفال الجنود، وسيّرت لخدمة أرباب الحرب القبلية وأهوائهم الوحشية، حتى صارت فتاة بلا ضمير تقدم على قتل توأمين صغيرين، والأمر لا يختلف كثيرا عند "سارا" التي تعرضت لعملية اغتصاب وحشية وهي الطفلة التي لا تتجاوز السابعة، من طرف رجل أوهمها بالأمان والاحتواء الذي ينبع من الأب ف "في يوم من الأيام استرعى وجود سارا في مكان نومها انتباه رجل لم يتوان في المجيء للقائها هناك، تقدم بلطف وحنو وأهداها ملبسا وحلوى، وبحسن نية تبعته سارا في الردهة بعيدا عن الأماكن المأهولة وهناك أخبرها برغبته في مضاجعتها برقة وبدون أذى، ذعرت سارا فشرعت في الصراخ والهرب لكن الرجل كان أسرع وأقوى منها، لذلك لحق بها فورا وانقض عليها وطرحها أرضا ثم اغتصبها بشدة لدرجة أنه تركها شبه ميتة"[24]. لقد وجدت "سارا" نفسها وغيرها من الفتيات السوداوات محل حصر بين واقع يعتبر السواد وصما، وبين آخر ينتهج الذكورة سلطة.

يبدو أن الجنرالة "أونيكا بكلاي دو" هي الأخرى ضحية من ضحايا الرجل، فقد كانت لها طريقتها الخاصة في معاقبة اللصوص؛ تعدمهم جميعا بالرصاص دونما اعتبار للشيء المسروق سواء كان إبرة أم ثورا، وذلك انتقاما من كل رجل سرق منها أنوثتها فيما سبق، لقد كانت تمتهن الدعارة حماية لنفسها من جنود المعسكرات الأخرى بوصفها شقيقة "صامويل دو" رئيس ليبيريا المقتول. لقد ورثت "أونيكا" معاناتها من أحد أفراد عائلتها الرجال دون قصد، وكأن مصير المرأة الإفريقية مرتبط دوما بالرجل سواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد.

4.موت مضاعف:

تعد الخالة "ماهان" نقطة الوصول التي تنتهي إليها الرواية، فهي وجهة "إبراهيما" التي قصدها منذ فقدانه والدته. هي ما تبقى له، وهي بصيص الأمل الذي يستحق أن يغامر بنفسه لأجله، فقد اندس في قلب الحرب الأهلية وانضم لعديد الفرق المتناحرة فيها، اشتغل كطفل جندي وشهد ويلات المعارك في سبيل إيجاد "ماهان" التي هجرت زوجها لقسوته وتهديده لها، فما كان من السلطات الاستعمارية إلا أن عاقبتها على فعل الهجران وحرمتها من طفليها، رغم تهديدات زوجها بقتلها. إنه وضع يجسّد معنى انحياز السلطة للرجل على حساب المرأة الإفريقية، وإلاّ كيف يعقل أن زوجة تعاني الظلم والقهر من زوجها على غرار تهديده لها بالقتل، تعاقب وتحرم من صغيريها، في حين أن الزوج يترك لحال سبيله! ولا يختلف الحكم المجحف للسلطة كثيرا في حادثة أخرى، وهي واقعة اغتصاب الفتاة ذات السبعة أعوام من طرف طفل جندي بالغ، لتُبرَرَ فعلته ويقال أن الشيطان تلبسه وهي من فعل الشيطان أساسا. لقد صوّرت الرواية في هذه المقاطع، هامشية المرأة لا بوصفها كائنا مهضوم الحقوق فحسب، بل حتى الأدوار الموكلة لها تظهر هشاشتها وعدم فاعليتها؛ ففي قرية "سانيكوللي" عاصمة الجنرالة، يصور السارد معاقبة الجنرالة للصوص في مشهد إعدام علني، إلا أن هذه القرية تظل قبلة للصوص يمارسون السرقة أثناء التجمهر لإعدام اللص دون اتعاظ ولا خوف، فكأن المحاكمة التي تقوم بها المرأة الإفريقية لا تعني شيئا وإن كانت محاكمة صارمة.

لقد لعبت الخالة "ماهان" دور المرأة التي تملك حلا لمعاناة الجميع، حيث اتخذ سرد أحداث الرواية مسارا ينتهي إليها منذ البداية، لكن أفق انتظار القارئ وهو يترقب ظهور هذه الشخصية ينكسر لمّا يدرك أن البحث عنها لا طائل منه: إنها الأمل الزائف الذي لا يملك نفعا لا لنفسه ولا لغيره. يقال أن الخالة "ماهان" لازمت الحصير لأيام إذ أصيبت بالملاريا وحمى شديدة، ولم يجد إبراهيما سوى أثر من ملابسها، يقول إبراهيما: في اليوم الرابع ماتت مثل كلب، فليغمرها الله برحمته، بفضل مساعد المعسكر اهتدينا إلى المكان الذي عاشت به الخالة، كانت آخر كلماتها تخصني"[25] ولأن وفاة الخالة "ماهان" المرأة الإفريقية والأمل الزائف لا يعني شيئا، يعلق إبراهيما قائلا: "وعندما رأيت سيدو

يخر ويضرب الأرض بكلتا يديه تقززت ومسحت دموعي لأن سيدو قال وهو ينتحب: "كم يؤلمني موت الخالة، يؤلمني ألما شديدا فسوف لن يكون بمقدوري ردها للدكتور وسوف يكون لهذا الأخير الأمر ولن يكون مجبرا أن يمنحني المليون!" إذن كان سيدو يتأسف على المليون وليس على موت الخالة"[26] حتى أن إبراهيما ومرافقيه في رحلة البحث عن خالته "ماهان" يصطدمان بالمشهد القاتم الآتي: ".... بتوجيه من مساعد المعسكر اهتدينا إلى الحفرة الجماعية التي رميت بها الخالة، جلسنا القرفصاء على حافتها من أجل صلاة أمّها ياكوبا"[27]، إن رمي جثة الخالة "ماهان" في مقبرة جماعية مفتوحة مثقل بدلالة رمزية، وهي فقدان الأمل في مصير أفضل للإنسان الإفريقي عامة، والمرأة الإفريقية خاصة.

خاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن استخلاص أنّ:

- ظاهرة الختان وصم يميّز النموذج الغالب من المرأة السوداء الإفريقية، من شأنه أن يؤثث لأسباب عديدة من مأساة هذه الأنثى؛ وذلك من خلال المساس بمقوماتها الشخصية ووضعها داخل المجتمع الإفريقي.

- يساهم الختان في تعزيز أطروحة الهيمنة الذكورية التي تقتات على غياب فاعلية المرأة وضمور دورها في المجتمع، فلقد أظهر النسق الثقافي الأسود وكذلك البيئة الطبيعية الإفريقية تداخل الوظائف الرجالية حيز المرأة الإفريقية واهتماماتها، وهو الأمر الذي لم يثبت وجودها داخل المجتمع، ولم يحدد موقعها منه، بالقدر الذي أبعدها عن قضيتها الأم في إعادة ترتيب أدوار المجتمع وفق ما تقتضيه طبيعة الجنس.

- يعتبر السواد وصما يميّز المرأة الإفريقية، يهدد أنوثتها ويجعل عقبة أمامها في محاولة موازنة أدوار المجتمع وإسماع صوت المرأة الإفريقية.

- طبعت المرأة الإفريقية سمات خضوع مستلة من الموروث الثقافي والتأويلات العقدية، انحازت لكفة الرجل وساهمت في تكوين مركزية ذكورية في المجتمع الإفريقي على حساب هامشية المرأة السوداء، ولعلها موروثات قد تجاوزتها نظيرتها البيضاء منذ بداية سفر تكوين النظرية النسوية في عقودها الأولى خلال القرن الماضي، وهو الأمر الذي يزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للمرأة الإفريقية؛ فلا هي بإمكانها تبنّي الأطروحة الغربية وهي التي تفوقها في سلم الأحداث على غرار اختلاف بيئتها وأهدافها عمّا يخص القارة السمراء، ولا الحركة النسوية بإمكانها التراجع نحو الأقلية الإفريقية التي تعاني الوضع المركب.

وبناء على ملاحظاتنا السابقة نعتقد أن تحدي النسويات باختلاف أنواعها يختلف عن تحديات المرأة الإفريقية، فهي تعاني وضعا مركبا يلتقي فيه التمييز الجنسي الذي يفتح صراعا أمامها في إعادة إنصاف المجتمع من حيث أدوار الرجل والمرأة، وتمييز عنصري يشكّل فيه اللون الأسود موضوعا لصراع آخر. وعليه يمكن تصنيف المرأة الإفريقية في خانة " هامش الهامش" وهو وضع يحيل على هامشية مضاعفة إذا ما اقترنت هذه الأخيرة بالرجل الإفريقي الأسود، إنه وضع يزيد من أعباء المرأة الإفريقية ويباعد الهوة بينها وبين النسوية البيضاء.

الهوامش والإحالات:

[1] أنظر: كمبرلي ويليامز كرينشو، استكشاف الهامش التقاطعية، سياسات الهوية والعنف ضد النساء الملونات، تر: تامر موافي، اختيار، مراجعة: وحدة الإنتاج المعرفي باختيار، ص 4.

[2] ملانكي: سلالة من الزنوج السود الأفارقة الأصليين كثيري العدد في ساحل العاج وغينيا وفي جمهوريات أخرى مثل زامبيا وسيراليون والسينيغال.

[3] شبح الأشخاص الأبرياء الذي يتابع من قام بقتلهم.

[4] الرواية ص 17.

[5] الرواية ص18.

[6] الرواية ص 18.

[7] M. Caflisch et M. Mirabaud, Les mutilations génitales féminines (MGF), Pediatrica, Genève, Vol. 18 No. 6, 2007, p 41.

[8] الرواية ص30.

[9] الرواية ص ص 30-31.

[10] الرواية ص31.

[11] الرواية ص ص28-29.

[12] الرواية ص 24.

[13] الرواية ص 26.

[14] الرواية ص 24.

[15] آمال تسورية قلعي، مقاربة نفسية لظاهرة ختان البنات، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب بعين تيموشنت –الجزائر، العدد 02، المجلد 04، ديسمبر 2020، ص 439.

[16] الرواية ص 38.

[17] الرواية ص ص38-39.

[18] الرواية ص 39.

[19] الرواية ص 26.

[20] الرواية ص 45.

[21]حفناوي بعلي، مدخل إلى نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر العاصمة، 2009، ص11.

[22] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 1997، ص 23.

[23] نادر كاظم، تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيّل العربيّ الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص 17.

[24] الرواية ص 125.

[25] الرواية ص 297.

[26] الرواية ص ص297-298.

[27] الرواية ص 300.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

أحمادو كوروما، لله الأمر، تر: ثريا إقبال، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2005.

المراجع:

المراجع العربية:

1.حفناوي بعلي، مدخل إلى نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر العاصمة، 2009.

2.عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 1997.

3.نادر كاظم، تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيّل العربيّ الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004.

المراجع المترجمة:

1.كمبرلي ويليامز كرينشو، استكشاف الهامش التقاطعية، سياسات الهوية والعنف ضد النساء الملونات، تر: تامر موافي، اختيار، مراجعة: وحدة الإنتاج المعرفي باختيار.

المجلات:

باللغة العربية:

1- آمال تسورية قلعي، مقاربة نفسية لظاهرة ختان البنات، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب بعين تيموشنت -الجزائر، العدد 02، المجلد 04، ديسمبر2020.

باللغة الأجنبية:

1- M. Caflisch et M. Mirabaud, Les mutilations génitales féminines (MGF), Pediatrica, Genève, Vol. 18 No. 6,2007.